



قوائم المحتويات متاحة على ASJP المنصة الجزائرية للمجلات العلمية
الأكاديمية للدراسات الاجتماعية والإنسانية
الصفحة الرئيسية للمجلة: www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/552



الآليات المنطقية للحجاج ودورها الإقناعي في الخطاب النبوي الشريف

The Logical Mechanisms of Argumentation and Its Persuasive Role in the Honorable Prophetic Speech

الجمعي حميدات¹،
¹ جامعة محمد لمين دباغين - سطيف 2، الجزائر.

Key words:

Argumentation
Argumentativeness
Persuasion
Logical Mechanisms
Argumentative Scales
Prophetic Speech.

Abstract

The theory of argumentation is one of the most important modern theories produced by pragmatics in which it enriches the literary and linguistic studies. It has received a great care in the modern era as it is the goal and the basic component in any language to achieve communication. Since one of the requirements of language is communication, so there is no argumentation without a communicative role; the argumentative project always relies on striving to achieve the desired effect of persuasion. To achieve the goal of argumentation, the prophetic speech adopted strategies and mechanisms in presenting arguments for lobbying the recipient which would follow different paths according to specific arrangements that gives the text an argumentative energy that enables it to influence the recipient through logical argumentative mechanisms that reflect the argumentative structure and its intended purpose on the one hand, and what the argumentative speech requires from these techniques and the effectiveness they provide is capable of influencing the recipient on the other hand.

ملخص	معلومات المقال
تعدّ نظرية الحجاج من أهم النظريات الحديثة التي أفرزتها التداولية والتي ازدانت بها الدراسات الأدبية واللغوية، إذ حظيت بعناية فائقة في العصر الحديث كونها الغاية الأسمى لإنجازية اللغة، والمكوّن الأساس في أي لغة تسعى حثيثا من أجل تحقيق التواصل والإفهام، ولأنّ من لوازم اللغة التواصل، وحيث ما وجد ذلك في الخطاب توجد ممارسات حجاجية، فلا وجود للحجاج من غير دور تواصلية، فالمشروع الحجاجي يُعوّل دائما على حاجة ماسة تكمن في السعي الدؤوب الذي من شأنه أن يحرز الأثر المطلوب للإقناع.	تاريخ المقال: الإرسال: 2022-12-03 القبول: 2023-03-24
ولتحقيق الغاية الأسمى من الحجاج تبني الخطاب النبوي استراتيجيات وآليات في عرض الحجج قصد استمالة المتلقي، والتي من شأنها أن تسلك سبلا مختلفة وفق تراتبية معينة تمنح النص طاقة حجاجية تمكنه من أسر المتلقي والتأثير فيه، وذلك من خلال آليات حجاجية منطقية تعكس البنية الحجاجية الكامنة والغرض المتوخى منها من جهة، وما يتطلبه الخطاب الحجاجي من هذه التقنيات، وما توفره من فاعلية قادرة على تحريك شعور المتلقي والتأثير فيه من جهة أخرى.	الكلمات المفتاحية: الحجاج الحجاجية الإقناع الآليات المنطقية السلالم الحجاجية الخطاب النبوي.

1. مقدمة

إقناع المخاطب والتأثير على فكره وتغيير قناعاته، بقدر ما اختلفت الوسائل الإقناعية المنطقية التي وظفها الرسول صلى الله عليه وسلم بغية إقناع مخاطبه والتأثير فيه، مما يعكس التمكن البلاغي والمنطقي وقدرته الذهنية لاختيار الأسلوب الذي يناسب المخاطب وحاله في خطابه، وحديثه مع الآخرين.... مستعملاً الأسلوب الخطابي العقلي أو الاستدلالي، مما جعل خطابه مُحَمَّلاً بقيم عقائدية وفكرية، ويضطلع بوظيفة إقناعية إبلاغية تهدف إلى بناء التواصل وتمكين مقتضى القول في نفس المتلقي وعقله.

لقد جاءت هذه الإطلاقة الحجاجية كمحاولة لدراسة الحديث النبوي الشريف وفق آلية الحجاج التي تركز على إقناع الطرف الآخر وفق ملفوظات وروابط وآليات منطقية تعكس تنوع أساليبه في حديثه مع المخاطبين من البشر ومراعاة أذواقهم وأحوالهم، وكذا ظروفهم في الخطاب والسلوك، وسعيًا للإجابة عن التساؤلات التالية: ما مفهوم الحجاج كآلية تسعى إلى إقناع الآخر والتأثير فيه؟ وكيف تبلورت معالم نظريته بين القدامى والمحدثين؟ إلى أي مدى تجلت طرق الحجاج المنطقية في إقناع المتلقي والتأثير على فكره وتغيير قناعاته؟ وما هي القواعد التي راعاها الرسول صلى الله عليه وسلم في الحديث مع المخاطب، والتي جعلت من الخطاب النبوي خطاباً حجاجياً بامتياز؟ ما هي أهم الآليات المنطقية والتي يتطلبها الخطاب النبوي، وما وفرته للعقول من فاعلية قادرة على تحريك شعور المتلقي والتأثير فيه؟ وأخير كيف ارتبطت البلاغة التي هي جوهر التمثيل والإقناع بالحجاج الذي هو جوهر العقل والإمتاع؟ وكيف حققت الظواهر المنطقية الغاية الحجاجية في الخطاب النبوي...؟

1. الحجاج بين اللغة والاصطلاح

1.1: الحجاج لغة

كثيراً ما ينطوي النص الحجاجي على احتمالات نسقية وإحالات إشارية ذات أبعاد ثقافية فاعلة، تتوسل باللغة وأنظمتها المتشابهة من أجل تشكيل للمعنى في إطار السياق الكلي للنص.. لذلك تُقدم المعجمية العربية رؤيتها للحجاج من الأصل المعجم القائم على تصور أولي لهذا النشاط الإنساني حين استخدمت فيه اللغة كوسيلة من وسائل التواصل والتأثير في الجماعات البشرية، فدارت معاني الجذر اللغوي "حجاج" "ح، ج، ح" على المجادلة بسبب خلاف الوجهة أو الرأي أو ما شابه... وفيه الدليل على الرأي المرغوب إثباته، وهذا ما نجده في لسان العرب: "حاججته أي غلبته بالحجج التي أدلت بها، والحجة هي البرهان أو ما دُفع به الخصم وتُجمع الحجة على حجج ويقال: حاجه محاجة وحجاجاً: أي نازعه الحجة، والتحاج هو التخاصم، ويقال: أنا حجيجه وحاججته، أي مُغالبه بإظهار الحجة التي تعني الدليل والبرهان....". (ابن منظور) ليظهر من هذا المفهوم دلالات لغوية متنوعة ومتراصة تدل على استعمالات متنوعة لهذا الجذر

لقد شهد عقد الخمسينيات في القرن العشرين صحوة نوعية في مجال الاهتمام بمباحث الدراسات البلاغية سعيًا منها لإقامة علم عام لدراسة الخطابات بأنواعها، فكانت الدعوة بما سُمي "بالبلاغة الجديدة" والتي دعت إلى وصف الخصائص الإقناعية للنصوص بصفة عامة، عملت اللسانيات والتداولية ونظريات التواصل على إنضاجها...

فكان الاهتمام بعملية التخاطب بعيداً كل البعد عن مكوناته من منظور القدامى، والتي حصرت في مكونين هما: المخاطب والمخاطب، فأضافت عناصر أخرى إلى المرسل والمرسل إليه إضافة إلى السياق وما له من دور في تشكيله، وكذا المعرفة المشتركة بين طرفي الخطاب، لذلك كان التركيز على عنصر التداول فيه والمقصدية من وراء إنشائه، وكذا الأهداف التي من شأنها نشأ الخطاب، وكيفية استخدام اللغة والتعامل معها.

من أجل ذلك كله، يُعدُّ البحث في الحجاج من نتائج التحول العميق الذي اكتنف الدرس البلاغي الحديث من جهة، وكان من إفرازاته أن تخلت البلاغة العربية عن نزعتها المعيارية في فرض القواعد لتَهْتَمَ برصد الوقائع، كما كشف الاهتمام بالدرس البلاغي من جهة أخرى عن طروحات علمية مغايرة أدّى إلى ظهور بلاغة جديدة خاصة حين اعتمدت على العلاقة اللازمة بين البلاغة ودراسة وسائل الإقناع، جعلت من الحجاج في رحاب هذا التحول خطاباً أساسياً في كل عملية اتصال تستدعي الإقناع.

وبذلك كان الحجاج من بين أهم النظريات التي تهتم بها التداولية إلى جانب نظريات أخرى كانتلفظ وأفعال الكلام... وهو يركز أساساً على الطريقة والأسلوب اللذين يتبناهما المتكلم للتعبير عن معتقدات المتلقي وإقناعه بالموضوع المراد إيصاله له... لأن الحجاج ليس في النهاية سوى دراسة لطبيعة العقول، ثم اختيار أحسن السبل لمحاورتها والإصغاء إليها، ثم محاولة حيازة انسجامها الإيجابي والتحامها مع الطرح المقدم، فإذا لم توضع هذه الأمور النفسية والاجتماعية في الحسبان فإن الحجاج يكون بلا غاية وبلا تأثير....." (محمد سالم، صفحة 57). أي أنه موجه للتأثير على آراء وسلوك المخاطبين كخاصية أساسية خصائص الخطاب الإقناعي، وبذلك يجعل أي قول مدعم صالحاً أو مقبولاً بمختلف الوسائل، ومن خلال مختلف الصيغ اللغوية والمنطقية إذا اعتبرنا هذه الصيغ هي أفعال كلها تمارس وظيفة الإقناع من خلال قوتها الكلامية وفق طرائق منطقية في البناء والربط والعلاقات الاستدلالية.

لذلك ظلت السمة الغالبة في الخطاب النبوي هي مراعاة مستوى التفكير المختلف تبعاً لفكر المخاطب ونمط شخصيته، والتي تتباين من شخصية تميل إلى المنطق، وأخرى للعاطفة، وثالثة للحجاج والمجادلة، وبذلك يتنوع الأسلوب اللغوي في

اللغوي ضمن سياقات مقامية متعددة نذكر منها:

- دلالة التخاصم والتنازع: والتحاَج التخاصم، وحاجّه مُحاجة وحجاج: نازعه بالحجة.

- دلالة البرهان والدليل: الحجة والدليل والبرهان، واحتج بالشيء اتخذه حجة.

- دلالة الغلبة والظفر: وحجه يحجّه حجا: غلبه على حجته.

إضافة إلى أنّ الحجاج يكون لخصومة، بدليل ما دلت عليه كلمة "غلبة" وتكون الغلبة في الكلام والخطاب الذي يقيم الحجة والبرهان على صحة ما يدعي، ومادام هناك خصومة فالجدال هو المظهر الذي يجسد صورة الخطاب الإقناعي. وعلى هذا يحمل الحجاج في مضمونه دلالة ومعنى مستمدين مما يُشكله سياقه أو شرطه التخاطبي المتمثل في التخاصم والتنازع والجدل والغلبة باعتبارها عمليات مأخوذة بمعانيها الفكرية والتواصلية.... (أعراب، 2001، صفحة 45)

وفي "أساس البلاغة" للزمخشري "أورد صاحبه في مادة "حجج": "احتجّ على خصمه بحُجّة شهباء وبحجج شهب، وحاجّ خصمه فحجّه، وفلان خصمه محجوج، وكانت بينهما محاجة..." (الزمخشري، 1992، صفحة 169)، ومعنى محجوج أي مغلوب، والشخص المتكلم المحاجج والسامع المحاجج المغلوب، أي اقتناع بحجة المتكلم....، أما "ابن فارس" في "مقاييسه" فيعرف الحجاج بقوله: "حاججت فلان بحجته فحججته، أي غلبته بالحجة، وذلك الظفر يكون عند الخصوم، والجمع حُجج والمصدر الحجاج..." (ابن فارس، 1991، صفحة 30)، وهذا ما يظهر أنّ الذي يدعي صحة رأيه عليه إثبات ذلك.

نستنتج من هذه التحديدات القاموسية أنّ لفظ الحجاج في اللغة يتنزل ضمن سياق جدالي يجمع بين طرفين أو أكثر، ومحاولة كلّ طرف إقناع الآخر برأيه مدعماً خطابه بأدلة وبراهين مؤدية إلى نتيجة معينة.... (العزاوي، 2006، صفحة 16)، من شأنها حمل المتلقي على تبني موقف ما، وبهذا يمكن القول: "إنّ الحجاج أحد الأفعال الإنسانية التي تسعى إلى الإقناع بواسطة أدلة تحمل المتلقي على الانخراط في رأي ما، وتتبع بذلك الوسائل المستعملة، وتستخدم إجراءات معقدة (بروتون، 2013، صفحة 19)...." وبذلك يكون الهدف من العملية الحجاجية إشراك المتلقي فيما يعتقده المرسل الذي يهدف إلى التأثير والإقناع والاستمالة عن طريق اللغة، أو ما سواها من وسائل التواصل الأخرى.

1-2: الحجاج اصطلاحاً

لمعرفة الدلالة الاصطلاحية للحجاج حرّينا أن نستأنس بما قاله "أبو الوليد الباجي" في منهاجه: "... وهذا العلم من أرفع العلوم قدراً وأعظمها شأنًا، لأنّه السبيل إلى معرفة الاستدلال وتمييز الحق من المحال، ولولا تصحيح الوضع في الجدل لما قامت حجة ولا اتضحت محجة، ولا علم الصحيح من السقيم

ولا الموعج من المستقيم....." (الباجي، 1987، صفحة 8).

وقد عرفه "طه عبد الرحمان" بقوله: "هو كلّ منطوق به موجه إلى الغير (المخاطب) لإفهامه دعوى مخصوصة، يحقّ له الاعتراض عليها..." (طه، 1998، صفحة 226)، أي أنّ وسيلة الحجاج هي اللغة التي يتوسل بها لإحداث التأثير، ومن ثم الاقتناع الذي يحقق به التلفظ بالخطاب فينتج عنه القرار بممارسة عمل معين أو اتخاذ موقف ما، سواء بالإقدام أو الإحجام.

ليتوسع أكثر في تعريف للحجاج من خلال كتابه "أصول الحوار وتجديد علم الكلام" وذلك من خلال مقارنته بالبرهان حيث أعطى للحجاج صفتين رئيسيتين: "... فهو تداولي لأن طابعه الفكري مقامي، واجتماعي، إذ يأخذ بعين الاعتبار مقتضيات الحال من معارف مشتركة ومطالب إخبارية وتوجهات ظرفية ويهدف إلى الإشراك جماعيا في إنشاء معرفة علمية إنشاء موجهها بقدر الحاجة...." (طه، 2000، صفحة 65)، أما الصفة الثانية له فهو كونه: "جدليا لأن هدفه إقناعي قائم بلوغه على التزام صور استدلالية أوسع وأغنى من البنيات البرهانية الضيقة، كأن تُبنى الانتقالات فيه لا على صور القضايا وحدها كما هو شأن البرهان، بل على هذه الصور مجتمعة إلى مضامينها أيما اجتماع، وأن يطوى هذه الانتقالات الكثير من المقدمات والكثير من النتائج...." (طه، 2000، صفحة 65).

فمن منظور "طه"، فالحجاج له صفتان: تداولي وهو أيضا جدلي، لأن حدّ الحجاج عنده فعالية تداولية جدلية، وهو تداولي لأن طابعه الفكري مقامي واجتماعي، وهو جدلي لأن هدفه إقناعي.

وكثيرا ما ارتبط الحجاج بالإقناع.... "باعتباره الآلية الأبرز التي يستعمل فيها المرسل اللغة وتتجسد عبرها استراتيجية الإقناع...." (الشهري بن ظافر، 2004، صفحة 456)، فليس هناك مرسل يرسل خطابا هباء إلا ومن من ورائه هدف معين وهو الاستمالة والتأثير عن طريق الحجج اللغوية وحتى غير اللغوية كالإشارات والإيماءات...

لتبقى وظيفة الحجاج: "هي طرح الحجج التي تضمن النفاذية للخطاب، وبالنتيجة حصول الإقناع الفعلي بالقضية المطروحة وهذا يعني توظيف الآليات التي تجتاز الاعتقاد الأولي نحو التغيير وبناء موقف مغاير...." (بن عيسى، 2006، صفحة 37).

في الوقت ذاته يمكن الإشارة إلى دوران الحجاج في مجاله المفهومي في الخطاب القرآني في دائرة مصطلحات متداخلة: "إذا كانت الحجة هي القضية أو الشق من القضايا التي تقدّم لصحة قضية ما، أي مقدمة البرهان التي تعرف أيضا بأساس البرهان، فقد أكد القرآن الكريم في أكثر من موضع وبمعان مختلفة أرقامها الحجة البالغة التي أقامها على العباد في قضية

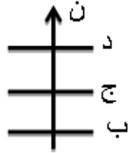
بالنسبة "للفتحة" والربط الحجاجي الذي يربط بينهما.

وقد تتجلى العلاقة المجازية بين الدعوى والحجة لتصبح علاقة شبه منطقية إلى حد ما، وذلك بالرغم من أنها تتجسد بطبيعة الحال من خلال الأدوات اللغوية، فتُمثل صلب "فعل الحجج" في تدافع الحجج وترتيبها حسب قوتها، إذ لا يثبت غالبا إلا الحجة التي تفرض ذاتها على أنها أقوى الحجج في السياق، وبذلك يرتب المرسل الحجج التي يرى أنها تتمتع بالقوة اللازمة التي تدعم دعواه.... (الشهري بن ظافر، 2004، الصفحات 499-500).

وهذا الترتيب هو ما سُمي "بالسلم الحجاجي"، ومن أبسط تمثيلاته ما يكتب عن الإنسان عند عرض سيرته الذاتية من التراتيبات في حياته، منها نموه المعرفي، وأعماله، ويمكن تعريف السلم الحجاجي: بأنه: "...عبارة عن مجموعة غير فارغة من الأقوال، مزودة بعلاقة ترتيبية موفية بالشرطين التاليين:

- كل قول يقع في مرتبة ما من السلم يلزم عنه ما يقع تحته، بحيث تلزم عن القول الموجود في الطرف الأعلى جميع الأقوال التي دونه.

- كل قول كان في السلم دليلا على مدلول معين، كان ما يعلوه مرتبة دليلا أقوى عليه (الشهري بن ظافر، 2004، صفحة 500) فالسلم الحجاجي هو علاقة ترتيبية للحجج، يمكن أن نرملها كالآتي: "ن- نتيجة، ب، ج، د" حجج وأدلة تخدم النتيجة ن".



فعندما تقوم بين الحجج المنتمية إلى فئة حجاجية ما علاقة ترتيبية معينة، فإن هذه الحجج تنتمي إلى ذلك إلى السلم الحجاجي نفسه، فالسلم الحجاجي هو فئة حجاجية موجهة.... (الغزالي، 2006، الصفحات 20-21).

تنطلق "نظرية السلالم الحجاجية" عند "ديكرو" من إقرار التلازم في عمل المحاجة بين القول "الحجة" (ق) و "النتيجة" (ن)، ومعنى التلازم هنا هو أن الحجة لا تكون حجة بالنسبة إلى المتكلم إلا بإضافتها إلى النتيجة، مع الإشارة أن النتيجة قد يصرح بها، وقد تبقى ضمنية.... (المبخوت، 1989، صفحة 362)، فنظرية "السلالم الحجاجية" التي تدعم هذه النتيجة قد تكون إذن متفاوتة في درجة قوتها، إذ تشكل سلما ينطلق من أضعف حجة حتى يصل إلى أقواها، لذلك سُميت "بالسلالم الحجاجية"، أما بالنسبة "للفتحة" فقد تكون ضمنية، وقد تكون صريحة كما في المثال التالي: س: ماذا تريد أن تفعل اليوم؟ - ج: ألا ترى أن الطقس جميل؟، فالاستفهام في القول "ج" يمثل "حجة" لفائدة نتيجة ضمنية هي الخروج للنزهة، وإن لم يقع التصريح بالنتيجة... (المبخوت، 1989، صفحة

الإيمان والكفر «قل فله الحجة البالغة فلو شاء لهداكم أجمعين» الأنعام 149، ودعا المؤمنين إلى ضرورة التصدي بالحجة وتحصيل الإقناع المرتكز على الأدلة والبراهين فيكون بها الظفر عند الخصومة والنزاع مثلما يكون بها التواصل عند التحوار والجدال بهدف الوصول إلى الحق، حتى أن الحوار والجدال ذاته يصبح حقا طبيعيا أمام الله الذي يعلم كل شيء «يوم تأتي كل نفس تجادل عن نفسها، وتوفى كل نفس ما عملت وهم لا يظلمون» النحل 111.

"فالعلمية الحجاجية لا يمكن أن تبرز بشكل جيدا ما لم تكن ثمة أدوات داخل المنظومة الناقلة للحجج، وهذه الأدوات تخضع لمفاهيم ذهنية هي بمثابة مقدمات من خلالها يتم وضع الآلية التي ستنتقل بواسطتها الحجج خلال الظروف المحيطة بالنص، وتحويل الخطاب إلى واقع...."

وفي الجهة المقابلة عند الغربيين يُقدم "شايم بيرلمان" تعريفا للحجج مبينا أهميته بقوله: "...جعل القلوب تدعن وتسلم لما يُطرح عليها من الأقوال، أو يزيد في درجة ذلك الإذعان وذلك التسليم، فأنجع الحجج ما وُفق في جعل حدة الإذعان تقوى لدى السامعين بشكل يبعثهم على العمل المطلوب...." (Perlman & tetyka, 2008, p. 59).

وفي مقابل التوجه المنطقي للحجج عند "بيرلمان"، فقد أشار "ديكرو" مُحددا "مفهوم الحجج" من خلال معنيين مختلفين، ينحصر الأول في عرض الحجج وتقديمها بهدف التأثير، يضمن بذلك الخطاب النجاح والفاعلية.... (أعراب، 2001، صفحة 99) إضافة إلى أن الحجج متوقف على الآليات المستعملة في الإقناع وكيفية الاشتغال على الجانب النفسي لما له من دور في التقبل أو الرفض... أما المعنى الثاني فإنه يدل على فئة مميزة من العلاقات التي توجد في الخطاب ضمن المحتويات الدلالية المتمخصة من المفردات... (حمو الحاج، 2015)

لنخلص في الأخير إلى أن الحجج آلية خطابية يُسخرها المرسل لتغيير نظام المعتقدات و التصورات لدى المخاطب في مقام أول،... ثم توجيهه إلى فعل ما في درجة ثانية.... بتنشيط آليات إقناعية متنوعة، وعن طريق استقصاء تلك الأساليب اللغوية والإقناعية يمكن استنتاج نقاط الخطاب والأسلوب الذي انتهجه المرسل للإقناع ...

3- الآليات المنطقية في الخطاب النبوي الشريف

إذا كان الخطاب الحجاجي يخضع في بنائه إلى مجموعة من الآليات، والتي منها ما يتعلق باللغة ومنها ما يرتبط بالبالغة والمنطق، فإنه بات من الضروري أن تثنى ثانية على جهود "ديكرو" في الحجج من خلال نظريته كما سبق باعتباره تحدث عن مفاهيم "الحجة" التي تمثل بناء استدلاليا، أو عنصرا دلاليا يقدمه المتكلم لصالح عنصر دلالي آخر قد يرد في شكل قول أو نص أو مشهد طبيعي أو سلوك غير لفظي، كما تكون ظاهرة أو مضمرة، بحسب السياق، الشيء نفسه

363)، ويتسم السلم الحجاجي بالسمتين التاليتين :

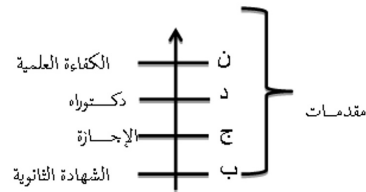
- كل قول يرد في درجة ما من السلم، يكون القول الذي يعلوه دليلا أقوى منه بالنسبة للنتيجة "ن".
- إذا كان القول "ب" يؤدي إلى النتيجة "ن" يستلزم أن "ج" و "د" الذي يعلوه درجة، يؤدي إليها والعكس صحيح، فإذا أخذنا الأقوال التالية:

حصل زيد على الشهادة الثانوية.

حصل زيد على شهادة الإجازة.

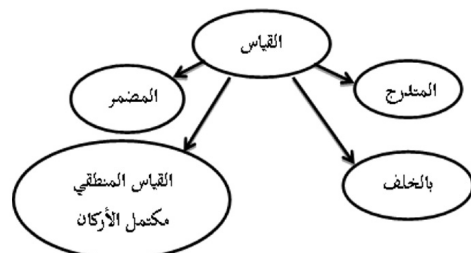
حصل زيد على شهادة الدكتوراه.

فهذه "الحجج" تتضمن حججا تنتمي إلى الفئة الحجاجية نفسها، وإلى حكم حجاجي واحد، فكلها تؤدي إلى نتيجة "مُضمرة" من قبيل "كفاءة زيد"، و"مكانته العلمية"، ولكن القول الأخير هو الذي سيرد في أعلى درجات السلم الحجاجي، فحصول زيد على الدكتوراه هو أقوى دليل على مكانته العلمية، ويمكن ترميزها:



وضمن هذا الطرح نلاحظ أن قواعد السلم الحجاجي تهدف في أساسها إلى تأكيد نتيجة معينة، تسبقها بالأحرى "معطيات" أو بالأحرى "مقدمات" تسهم بطريقة مضبوطة في التقديم في تحقيق القضية المطروحة أو دحضها، ذلك أن العلاقات النصية التي يُقيمها سياق النص "الإقناعي" هي علاقات الدعوى أو النتيجة، لذلك كان من الضرورة أن يرتبط محتوى النتيجة بمحتوى المقدمات، لذلك يُعد "القياس" أهم الوسائل المنطقية التي تنبني على أساس هذا الشرط، لأنه كما يُعرفه "ابن سينا": "هو قول مؤلف من أقوال، إذا وُضعت لزم عنها لذاتها لا بالغرض قول آخر غيرها اضطرارا..." (بن زيوش، صفحة 48).

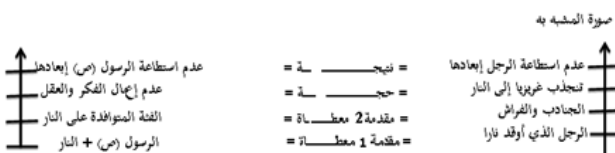
ونظرا لأهمية القياس في العمل الحجاجي، فإنه قد يعتمد قياسات ممتدة بحيث تكون فيه "المقدمات والنتائج مثالية مع الأفكار التي نوذ بسطها، والتي يقتضي بعضها بعضا...، إذ يمكن أن نلخص أنواع القياس:



وقد تُذكر جميع أركان القياس "المقدمة الكبرى، المقدمة الصغرى، النتيجة"، وبذلك يكون "قياسا منطقيا" كاملا، وقد تُضمّر أحد العناصر الثلاث؛ إما "المقدمة الكبرى" أو "الصغرى" ويسمى "القياس مضمرا" والتي يقصد بها المقصود بالضمائر الأقيسية المنطقية التي أضمرنا بعض مقدماتها، ودعا إلى هذا الإضمار أسباب عديدة تتعلق بالتأثير الخطابي .. (صولة، 2007، صفحة 462).

ومن الأقيسة التي استعملها الرسول "ص" في الحديث النبوي الشريف معتمدا على بسط الحجة وتبسيطها كي تكون مفهومة، والتنوع في أبنيتها، بعض النماذج الحجاجية القائمة على التمثيل الذي يسميه الفقهاء قياسا "قياس المثال"، ففيه إشارة إلى فاعلية المثل، والعملية الاستنتاجية التي تستوجب علما لفهم المثل والوصول إلى النتيجة، قوله "صلى الله عليه وسلم" عن جابر رضي الله عنه قال: قال الرسول: مثلي وممثلكم كمثّل رجل أوقد النار وجعل الجنادب والفراش يقعن فيها، وهو يذُبّهَن عنها، وأنا أخذ بحجزكم عن النار وأنتم تفلتون من يدي.." (ابن حجر، 1998، صفحة 520) فقد شبه الرسول "صلى الله عليه وسلم" المخالفين له "بالفراش والجنادب" وتساقطهم في نار الآخرة، بتساقط الفرّاش في نار الدنيا، مع حرصهم على الوقوع في ذلك ومنعه إياهم، والجامع بينهما إتباع الهوى وضعف التمييز، وحرص كل من الطائفتين على هلاك نفسه... فالخلق لا يأتون ما يجُرحهم إلى النار على قصد الهلكة، وإنما يأتونه على قصد المنفعة وإتباع الشهوة، كما أنّ الفرّاش يقتحم النار لا ليهلك فيها، بل لما يعجبه من الضياء..." (ابن حجر، 1998، صفحة 521)، فمثل ذلك كلّ تعبير الرسول "صلى الله عليه وسلم" عن عدم إفلاحه في إبعاد الفئة المخاطبة من الهلاك، فمثل لهذه الفئة ولنفسه برجل أوقد نارا، وإذا بمجموعة من الحشرات (جنادب، فرّاش) يقعن فيها، وهو يحاول إبعادها، ولكنّه لم يفلح تماما، كما هو حال الرسول "صلى الله عليه وسلم" الذي يحاول إبعاد هذه الفئة عن النار، لكنها تنفلت منه بسبب انغماسها في الجهل والمحرمات التي تقودها إلى النار.

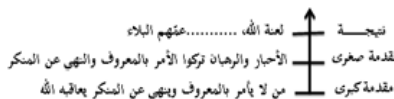
و"قوة الحجة" تكمن في أن إبعاد هذا النوع من الحشرات عن النار عملية قريبة من المستحيل، لأنّ من فطرتها الانجذاب إلى النار والموت فيها، ومن ثم فرغبتها في الإنقاذ لا تفيد شيئا، ويُمكن تمثيل ذلك التشبيه حجاجيا في نمطين مختلفين في "ركن التشبيه" هما المشبه، والمُشبه به "في سلم حجاجي مبني على نتيجة معطاة" و"حجة مدعمة" و"نتيجة" يرغب في تحصيلها، وذلك:



تأويل علاقة الله بعباده، عن طريق صيغة المبالغة "أشد" وهي "نتيجة كبرى" تحتوي "النتيجة الأولى" وهي "فرحة العبد بعودة راحلته" والتي تفضي بدورها إلى استنتاجات هي ضرورة العودة إلى الله .. ورحمة الله واسعة، وهي الأغراض المستقاة من الحديث (الترغيب)، إذ يمكن عده "فعلا كلاميا غير مباشر" استلزمه منطق "التمثيل".

في وقت أورد فيه "بليق عز الدين" نموذجا آخر من نماذج الحجاج عن طريق المنطق، وهو حجاج قائم على الاستدلال بالعام على الخاص، وذلك حين ينتقل الفكر بصدق قضيتين إلى الحكم بصدق قضية ثالثة لازمة عنها، ومعنى ذلك انتقال من كلي يقيني إلى جزئي ينطوي تحته، ليعطي مقدمة كبرى، ثم تليها مقدمة صغرى تستلزم بالضرورة "نتيجة"، ومن ذلك قوله "صلى الله عليه وسلم": "يا أيها الناس مروا بالمعروف وانهاؤا عن المنكر، قبل أن تدعوا الله فلا يستجيب لكم، وقبل أن تستغفروا فلا يغفر لكم، إن الأمر بالمعروف لا يقرب أجلا، وأن الأحبار من اليهود والرهبان من النصارى لما تركوا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لعنهم الله على لسان أنبيائهم وعمهم البلاء...". (بليق، 1981، صفحة 413).

فلنلاحظ في الحديث كيف تميزت المقدمة الكبرى بالعموم "يا أيها الناس مروا بالمعروف... لأن من لا يفعل يعاقبه الله بعدم الاستجابة له"، ثم أتبع بقضية جزئية تتميز بالخصوص، حين خصّ الرسول "صلى الله عليه وسلم" "الأحبار": (تركوا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر)، ترتب عن ذلك نتيجة منطقية "سيعاقبهم الله، لعنهم، عمهم البلاء"، ويمكن أن نمثل ذلك عن طريق السلم الحجاجي المبني على:



فبالأمل في نصّ الحديث نلاحظ ذلك الربط بين "المعطيات والنتيجة"، لاسيما وهو مؤسس ضمنيا بواسطة سند أو دعامة، فأعطى الرسول "صلى الله عليه وسلم" معطيات ظاهرة، وأضمر السند "الحجة": ليربط القضية المعطاة التي هي الأحبار ... بالنتيجة المتمثلة في لعنة الله عن طريق ضامن ظاهر يضمن صحة الاستدلال، وهو من لا يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر يعاقبه الله، إلى جانب وجود "سند مضمّر" يستمد منه صحته وشرعيته، يدلّ عليه السياق في قوله تعالى: ﴿ولتكن منكم أمة يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون﴾ آل عمران 104.

فقد كان بناء الحديث على أفعال كلام مباشرة وهي أفعال طلبية أمرية "مروا، وانهاؤا"، وهي أفعال الغاية منها حمل السامع على فعل ما أمر به، فقدّم الرسول "صلى الله عليه وسلم" (أمره، ونهيه) معتمدا معطيات إخبارية عن اليهود

فبالانطلاق من "مقدمات معطاة" مع "حجة مقدّمة" تكون النتيجة منطقية عن طريق التمثيل، الذي وقع على صورة الإكباب على الشهوات من الإنسان، بإكباب الفراش على التهافت في النار، لكن جهل الآدمي أشد من جهل الفراش، لأنّها باغترارها بظواهر الضوء إذا احترقت انتهى عذابها في الحال، والآدمي يبقى في النار بسبب شهواته مدة طويلة أو أبدا...." (ابن حجر، 1998، صفحة 522).

فالدلالة المنطوية وراء هذا الحديث وهو "المسكوت عنه" المترابط باستنتاج المتخاطبين، وهو ما يسمى في الحجاج "فعل الاستنتاج"، وهو مرتبط بقانون "الإفادة"، إذ لا نتصور أنّ الرسول "صلى الله عليه وسلم" يريد أن يخبر هذه الفئة أنّ الجنادب والفراش تنجذب غريزيا إلى النار، ذلك أنّ الوضعية التبليغية تقتضي "التلميح دون التصريح" وهي الدعوة إلى الهداية، ومن الناحية التبليغية هي الأسبق إلى الذهن من الخبر القائم على التمثيل، لأنّ "الإخبارية" هي "ثانوية" من حيث الوظيفة، بالنسبة للعملية الحجاجية.

- كما صنّف "البخاري" في "باب التوبة" حديثا حجاجيا قائما على التشبيه هو الآخر، دعامته "حجة معطاة" بعد "مقدمات" سياقية، حرصا على تبين "النتيجة" وأهميتها من خلال حديث عبد الله بن مسعود: "لله أشد فرحا بتوبة عبده حين يتوب إليه من رجل نزل منزلا و به مهلكة ومعه راحلته، عليها طعامه وشرابه، فوضع رأسه فنام نومة، فاستيقظ وقد ذهبت راحلته، ثم اشتد عليه الحر والعطش أو ما شاء الله، قال: أرجع إلى مكاني، فرجع فنام نومة، ثم رفع رأسه، فإذا راحلته عنده...." (البخاري، 1999، صفحة 2325) ... فأخذ بحطامها... ثم قال من شدة الضرح: اللهم أنت عبي وأنا ربك، أخطأ من شدة الضرح (الإمام النووي، 1991، صفحة 26).

فالحديث يعكس فرحة الله تعالى بتوبة عبده حين يعود إليه، إذ شبه الرسول "صلى الله عليه وسلم" فرحة من أضاع راحلته (حياته) في الصحراء (الفلاة)، وعليها طعامه وشرابه، وشبهها بفرحة الله بتوبة عبده حين يعود إليه، ويمكن تمثيل ذلك حجاجيا عن طريق:

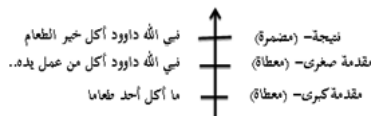


إنّ الإطار التداولي الحجاجي يتجاوز البحث عن "الإقناع" إلى محاولة بناء نمط حجاجي تمثيلي الغرض منه التأثير على السامع من خلال صيغ لغوية للقول بعيدة عن الإخبار، ارتبطت أساسا بين صيغة: ("شدة الضرح واليأس من عودة الراحلة الخاصة بالعبء")، وأشد فرحا التي تعتبر نداء لفهم و

خيرا من أن يأكل من عمل يده، وأن نبي الله داوود عليه السلام كان يأكل من عمل يده....". (البخاري، 1999، صفحة 730).

ففي الحديث فضل العمل باليد، وتقدير ما يباشره الشخص بنفسه، على ما يباشره بغيره، والحكمة في تخصيص "داوود عليه السلام" بالذكر أن اقتضاه في أكله على ما يعمل به لم يكن من الحاجة، لأنه كان خليفة في الأرض، وإنما ابتغى الأكل عن طريق الأفضل، ولهذا أورد عليه الصلاة والسلام قصته في مقام الاحتجاج بها على ما قدمه؛ من أن خير الكسب عمل اليد، وهذا بعد تقرير: أن شرع من قبلنا شرع لنا....". (ابن حجر، 1998، صفحة 353).

ففي هذا الحديث تظهر مقدمة كبرى: (ما أكل أحد طعاما (... تدعمها مقدمة صغرى (إن نبي الله داوود كان يأكل من عمل يده...))، لتبقى النتيجة مضمرة نستخلصها من "السياق" وفق تجسيدها حاجيا:



فنتوصل إلى استنتاج هذا الاستدلال (القياس) عن طريق قاعدة الاستدلال القائمة على ضامن معطى يتمثل في مقدمة كبرى "ما أكل أحد طعاما خيرا من أن يأكل من عمل يده"، وسند مضمر (حجة) تتمثل في قوله تعالى: ﴿لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ يس 25، ليبقى الهدف الإقناعي من هذا الحديث هو الحث على الكسب والعمل، مع الإقرار بقيمة العمل، حتى وإن خلت من فعل الطلب كالأمر والنهي، باعتباره يخص الإنسان في مجتمعه (العمل)، هذه القيمة لا تأتي إلا بالعمل حتى وإن كان المعنى ذا شأن كبير، وسلطة روحية مثل النبي "داوود عليه السلام"، فبذلك كان القانون الإخباري "هو الضامن للحجة من أجل التأثير في المتلقي.

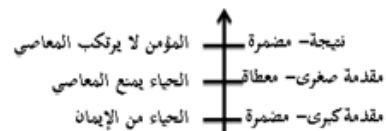
وفي نوع آخر من أنواع القياس يسعى من خلاله المتكلم إلى إثبات مطلوب معين، وذلك عن طريق إبطال نقيضه أو ضده، ويُعرف هذا القياس بـ "القياس بالخلف" وهو الذي يتبين فيه المطلوب من جهة تكذيب نقيضه، فيكون هو بالحقيقة مركبا من قياس اقتراني وقياس إنشائي....". (السباعي، 2001، صفحة 223)، كما يمكن تعريفه: "بأنه إثبات المطلوب بإبطال النقيض..." (السباعي، 2001، صفحة 223)، ومثال ذلك حديثه عليه الصلاة والسلام عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رجلا أتى النبي فقال: "يا رسول الله ولد لي غلام أسود، فقال: هل لك من إبل؟ قال: نعم، قال: ما ألوانها؟ قال: حُمْر، قال: قل فيها من أورك؟ قال: نعم، قال: فأنت ذلك؟ قال: لعله نزع عرق، قال: فلعل ابنك هذا نزع...". (البخاري، 1999، صفحة 2032).

ففي الحديث ضرب للمثل، وتشبيه للمجهول بالمعلوم تقريبا لفهم لدى السائل، واستدل به رسول الله لصحة العمل

والنصارى، ليكون القيام بالفعل مرتبطا بمدى قوة القاعدة الاستدلالية من ضامن (عقاب الله) وسند (الآية) ليقوم بهما حجة بالغة في الإقناع والتأثير معا، وحمل المخاطب على القيام بالفعل.

وفي دائرة القياس دائما، نلاحظ نوعا آخر من القياس المنطقي وهو "القياس المضمر" معياره أنه "قياس محذوف المقدمة"، وهي عادة "المقدمة الكبرى"، إذ يُعرفه (ابن سينا) بقوله: "الضمير "المضمر" هو قياس طويت مقدمته الكبرى..". (السباعي، 2001، صفحة 222)، إذ يتضح أن معيار القياس المضمر هو قياس محذوف "المقدمة"، وهي عادة المقدمة الكبرى... (العبد، 1989)، ومن أمثلة هذا القياس في حديث رسول الله "صلى الله عليه وسلم" عن أبي مسعود عقبة قال: قال النبي. صلى الله عليه وسلم "إن مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى إذا لم تستحي فاصنع ما شئت....". (البخاري، 1999)، فجاء في حديث المصطفى "فعل الأمر" الواقع في جملة جواب الشرط "إذا"، وهو أمر بمعنى "الخبر"، أو هو "للتهديد" أي: "اصنع ما شئت فإن الله سيجزيك"، أو ما معناه "أنظر إلى ما تريد أن تفعله، فإن كان مما لا يُستحي منه فافعله"، وإن كان مما يُستحي منه فدعه، أو المعنى: أنه إذا لم تستحي من الله من شيء يجب أن لا تستحي منه من أمر الدين فافعله ولا تبالي بالخلق"، أو المراد الحث على "الحياء" والتتويه بفضل، "أي لما لم يجز صنع جميع ما شئت لم يجز ترك الاستحياء..". (ابن حجر، 1998، صفحة 590)، ويمكن عرض القياس المضمر في الحديث النبوي على شاكلته:

في هذا القياس لا يمكن تجاهل دور "الاستنباط" الموصول إلى معرفة "المقدمة الكبرى" المحذوفة أو المضمرة، إذ لا يكون سبيل لتقدير المقدمة الكبرى سوى "الاستنباط"، إذ عن طريق حذفها في هذا النوع من القياس في الكلام يعطيه حجة في القياس المنطقي، فلا بد من قبول المخاطب للمقدمة الكبرى، وإلا كان الاحتجاج عبثا، وفي القياس المضمر تسلّم جدلا بتلك المقدمة...". (العبد، 1989، صفحة 224)، ومنه نستنتج دور الاستنتاج أو الاستنباط في القياس المضمر، إذ هو يستوجب حضورا ذهنيا للقارئ أو المستمع، بحيث يربط - من سياق الاحتجاج - ما هو موجود (مذكور) بما هو مضمر مقصود.



وقد يأتي هذا النوع من الاحتجاج "مضمرا" أو "محذوف النتيجة لمقدمتين مذكورتين"، فيتوصل إلى النتيجة عن طريق السياق الذي وردت فيه المقدمتان من جهة، ثم ضرورة الاعتماد على "سند" مخفي "لتدعيم حجة الإقناع والتأثير من جهة أخرى، ومثل ذلك حديث المقدم رضي الله عنه: عن الرسول "صلى الله عليه وسلم" قال: "ما أكل أحد طعاما قط

- لفظت "ولي" — تشكل "مقدمة صغرى" تقود مع ما سبقها من مقدمات إلى نتيجة أخرى جديدة. - "النتيجة الجديدة": القرب والمحبة مجلبة للحفظ من الله تعالى.

- "مقدمة كبرى": العبادة وسيلة للقرب من الله، من يُعاد أولياء الله يحاربه الله.

- "مقدمة صغرى": عباد الله وأولياؤه يتقربون إليه بالعبادة، والعبادة وسيلة للمحبة.

"نتيجة": العبادة وسيلة للمحبة والقربة، والقرب والمحبة مجلبة للحفظ من الله.

والحديث عن القياس والسلالم الحجاجية في الحديث النبوي الشريف، يقودنا حتماً إلى الوقوف عند نماذج مختارة تجلّي فيها الخطاب بصورة ظاهرة وهو مجال "الخطابة"، وهو مجال التحليل الحجاجي للنصوص، ويظل "الدكتور" أبو بكر العزاوي "من أوائل الذين حاولوا القيام بتحليلات حجاجية لنصوص لغوية كاملة، كما حاول ربط التحليل الحجاجي بانسجام النص القائم على الروابط الحجاجية، سواء توافرت النصوص على كثير من هذه الروابط أو حتى في غيابها..." (العزاوي، 2006، صفحة 29)، ومن خطبه عليه الصلاة والسلام: (الشهاوي، د، ت، صفحة 5).

"الحمد لله أحمدته وأؤمن به، وأتوكل عليه، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، إن الرائد لا يكذب أهله، والله الذي لا إله إلا هو، إنّي رسول الله إليكم خاصة، وإلى الناس عامة، والله لتموتون كما تنامون، ولتبعثن كما تستيقظون، ولتُحاسبون بما تعملون، وإنّها الجنة أبداً أو النار أبداً..."، إذ تُعدّ هذه الخطبة أول خطبة خطبها الرسول "صلى الله عليه وسلم" بدأها "بمقدمة جديدة" تعلن صراحة خطاباً جديداً، وانتقالاً جديداً، إذ يمكن أن ننظر إليها حجاجياً من خلال:

- مقدمة: الحمد لله تعالى والاستعانة به، والإيمان والتوكل عليه، والشهادة بأنّه الإله الواحد لا شريك له.

- حجة (مقدمة 2): بناء على المقدمة الأولى هناك خطابة جديدة، ودين جديد وقيم جديدة.

- نتيجة: وجوب الاستماع والاقتناع بنص الخطبة وحججها.

لتنقل الخطبة لإثبات حجتها الأساسية وهي إثبات الرسالة للرسول "صلى الله عليه وسلم"، وكان ذلك من خلال ثلاث خطوات حجاجية متصاعدة بدأت "الاحتجاج بالاستشهاد بالمثل العربي" الرائد لا يكذب أهله" إذ يمكن صياغتها حجاجياً:

-أنا مثل "الرائد لا يكذب أهله"

← معطى (مقدمة).

-تعلمون أنّي صادق، وأنّي أحبكم لأنكم أهلي

← حجة (سند) م2.

بالقياس، قال "ابن العربي": "فيه دليل على صحة القياس والاعتبار بالنظير... وفيه أنّ الزوج لا يجوز له الانتفاء من ولده بمجرد الظن، وأنّ الولد يلحق به ولو خالف لونه لون أمّه.." (ابن حجر، 1998، صفحة 507)، وقد جاء هذا القياس في شكل حوار بين الرجل الذي أنكر على زوجته هذا المولود الأسمر، تخلّلت أفعال طلبية في شكل نداء: (يا رسول الله) واستفهام: (هل لك من إبل؟)، (ما لونها؟)، (هل فيها من أورك) "استعمل فيه الرسول "صلى الله عليه وسلم" القياس عن طريق: أنّ حكم الشيء حكم نظيره ما دام الاتفاق حاصلًا في أنّ الخالق والموجد واحد (هو الله)، إذ نقل عليه "صلى الله عليه وسلم" ذهن الرجل وقاس له حالته على ما هو مشاهد ومحسوس، فكما أنّه يجوز أن تلد الإبل السوداء "الحمراء" أن تلد (أورك)، (من أورك مؤنثة ورقاء) وهو الذي فيه سواد ليس بحالك بل يميل إلى الغيرة)، بسبب عرق نزعه، كذلك يجوز للأب والأم الأبيض أن يلدًا طفلاً أسود اللون، ففي الحديث تشبيه منطقي أساسه العقل، يهدف إلى توضيح الصفات التي تؤثر في الحكم (الإقناع).

ليضاف إلى هذه الأنواع النوع الآخر وهو "القياس المتدرج"، إذ هو واحد من أنواع القياس المنطقي الذي يسعى إلى تحديد العلاقات المنطقية الدلالية بين الأقوال وما تُعبّر عنه من قضايا، إذ يُعدّ القياس المتدرج امتداداً معقداً للتحليل القائم على القياس المنطقي، وذلك بأن تتصل بعض مجموعات القياسات المنطقية ببعض، حتى تؤدي إلى نتيجة هي المقدمة الكبرى لنتيجة أخرى لاحقة..... (العبد، صفحة 225)، ومثال ذلك حديث الرسول "صلى الله عليه وسلم" عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله: "إنّ الله تعالى قال: من عادى لي ولياً فقد أذنته بالحرب، وما تقرب إلي عبدي بشيء أحبّ إليّ مما افترضته عليه، ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وإن سألني لأعطينه، ولئن استعادني لأعيدنه..." (البخاري، 1999، صفحة 362).

فَوَلِيّ الله هو العالم بالله والمواظب على طاعته، والمخلص في عبادته....فمن والى أولياء الله أكرمه الله...ولما كان وليّ الله من تولى الله بالطاعة والتقوى تولاه بالحفظ والنصرة....فمن عاداه كان كمن حاربه... ومن حاربه كان كمن حارب الله ... وفي الحديث عظم قدر الصلاة والنوافل وما يندب من الأقوال والأفعال والتي ينشأ عنها محبة الله للعبد الذي يتقرب بها وذلك لأنها عمل للمناجاة والقربة ... فمن أتى بما وجب عليه وتقرب بالنوافل لم يردّ دعاؤه لوجود هذا الوعد الصادق المؤكد .. "ولئن سألتني لأعطينه" فشرح الحديث يقتضي الوقوف عند "قياس متدرج" كان الانطلاق فيه من:

- "مقدمتين" — تقودان إلى "نتيجة صالحة" وهي أنّ العبادة وسيلة للقرب والمحبة.

-تصديقي فيما أقول، وما جئت به إليكم

← نتيجة.

من مؤكّدات: "إن، والله، إني، والله، اللام+ن، اللام + النون (لتموتن، لتبعثن)، إنها، أبدا، أبدا..).

كما احتوى النص على الحجاج "بالاستشهاد بالمثل" الذي يمثل قوّة حجاجيّة، إذ هو مرتبط بالبيئة الصحراوية التي تعتمد على صدق الرائد، حينما ترسله للبحث عن الماء "المثل"، من حيث القيمة أنّه مبدأ حجاجي يشير إلى الأفكار المشتركة بين أفراد مجموعة بشرية معينة.

كما نجد قوّة حجاجية أخرى باستعمال علامة التشبيه أو ما يسمى "بالحجاج بالتشبيه" لإثبات البعث بعد الموت بتشبيه الموت بالنوم، وتشبيه البعث بالاستيقاظ، إذ ساعد التشبيه على فهم المشبه واستيعاب أحواله، وعلى هذا فاستعمال التشبيه هنا ذو وظيفة حجاجية تؤدي إلى الاقتناع، بما يتعلق بالمشبه من أحكام، فهي من المنظور النبوي خلود أبدي في إحدى الدارين: بناء على موقف السامع من دعوته عليه الصلاة والسلام، إمّا بالتصديق فجنة..... أو بالتكذيب.... فالنار..

أمّا من حيث "الروابط الحجاجية" فتتمثل في استعمال القسم "والله الذي لا اله إلا هو" كرابط نصي حجاجي يقوم بعملية الربط والتأكيد في الوقت نفسه، كما يتضمن إثبات حجّة الإلهية، واستعمال العطف بالواو: "ولتبعثن ... ولتحاسبن"، وإنّها "هذه الواو العاطفة المكررة ساهمت في ربط نتيجة الحجاج في النص كاملا لتوضيح أنّ بعد الموت يكون هناك حساب للمصّدق، وعقاب للمكذب، وبذلك يمكن صياغة نص الخطبة في عبارة: "صدقوا أنّي رسول الله إليكم، فمن صدّقني فله الخلود في الجنة، ومن كذبني فسيخلد في النار"، التي تمثل البنية الدلالية الكبرى للنص، وهي تمثل انسجام النص حجاجيا ودلاليا في اللحظة ذاتها، إذ الحجاج يمكن صياغته في قضية إثبات صدق رسالة النبي "صلى الله عليه وسلم" يكاد يتماثل المحتوى الحجاجي مع المحتوى الدلالي، مما يجعل التماسك الحجاجي يزيد في قوة انسجام النص.

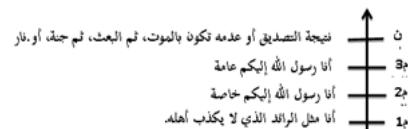
ومن المواطن التي تجلّى فيها الحجاج ما أسّسته الخطابة الدينية من بنية جديدة مفتوحة تتيح الحوار في أثناء نص الخطبة، والذي من شأنه أن يقوي جانب الإقناع عند المتلقين، مثال ذلك ما أورده الرسول عليه الصلاة والسلام في سياق التحذير من التنافس على الحياة الدنيا، وأنّ النعم قد تكون سببا في جلب النقمة.... وذلك في خطبة كان الحجاج فيها حول قيام رجل من الصحابة بسؤال مفاده: هل يمكن أن تؤدي بركات الأرض والمال وزهرة الدنيا التي هي خير ونعم إلى الشر؟... فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله "صلى الله عليه وسلم" قام على المنبر، فقال: "إنّما أخشى عليكم من بعدي ما يفتح عليكم من بركات الأرض، ثم ذكر زهرة الدنيا، فبدأ بإحداها ثم ثنى بالأخرى، فقال: يا رسول الله أو يأتي الخير بالشر؟ فسكت عنه النبي "ص" (قلنا : يوحى إليه)، وسكت الناس كأنّ على رؤوسهم الطير، ثم أنّه مسح على وجهه الرّحضاء، فقال: أين السائل أنفا، أو خير

ثم انتقلت الخطبة إلى التصريح بالحجّة الرئيسية وهي: "والله الذي لا اله إلا هو أنّي رسول الله إليكم خاصة، وإلى الناس عامة"، وهي حجّة رئيسية حتى تربط بالمقام وهو مقام إقناع وتأثير، إذ هي مدار الخطبة بأكملها، إذا تمّ التصديق بما فسيتم التصديق بكل شيء يرتبط بها)، وفي المعتقد أنّ القسم في بداية الحجّة إضافة إلى وظيفته التأكيدية التوجيهية الإثباتية يحمل وظيفة "نصيّة" أخرى وهي وظيفة الربط الحجاجي النصّي، بما يؤكد الحجّة السابقة التمهيدية، خاصة حين تضمنت صيغة القسم بالمقسم "الله تعالى"، ليجري ربط كل ذلك بالمعطى (المقدمة للحجّة التي هي جواب القسم، فيمكن هيكلتها حجاجيا:

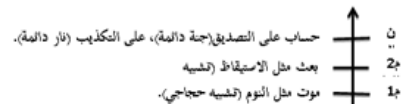
- معطى (مقدمة 1).....:إني رسول الله إليكم خاصة، وإلى الناس عامة.

- حجّة (مقدمة 2):.....صدقوا أنّي رسول الله إليكم.

- نتيجة:- في حالة تصديقكم أو في حالة عدم تصديقكم يجب الاستماع لما سيحدث لكم، لتتصاعد بعدها الحجّة في هيئة إقناعية هائلة، تمثل إثباتا للبعث بعد الموت، والحساب، وللجنة الدائمة للمصّدقين، وللنار الدائمة للمكذّبين، وقد رُبطت هذه الحجّة بالرباط الحجاجي الإثباتي (القسم) لفظ القسم (الله)، لتشتمل الحجّة - إضافة إلى كونها حجّة سلّمية متصاعدة على سلّم حجاجي في داخلها، مما يذهب بالحجّة إلى أقوى حالتها من خلال السلم الحجاجي التالي:



لتأتي الحجّة الثالثة في السلم الحجاجي السابق على شكل سلّم حجاجي تصاعدي، هو الآخر من شأنه أن يثبت "حجّة الموت" بتشبيهه بالنوم، و"حجّة البعث" وتشبيهه بالاستيقاظ، وبناء على الحجّتين المركبتين يكون هناك حساب بعد الموت، ثم دخول أبدي إلى الجنة، أو دخول أبدي إلى النار. ويمكن رسم السلم الحجاجي:



ولعلّ هذا التصاعد في السلم الحجاجي الأول الذي أتبع بتصاعد حجاجي في السلم الحجاجي الثاني جعل من الحجاج في أعلي ذروته.... إذ لا يترك إلا مجالا واحدا وهو "التصديق" كما جاء به عليه الصلاة والسلام، إذ لا قدرة على دحض الحجاج النبوي أو ردّه بحجاج آخر في مستواه، هذا إضافة إلى ما حفل به النصّ

- ضرب "المثل" التقريبي المؤدي إلى الإقناع الشديد، من خلال صورة التشبيه التمثيلي بين جامع المال في سبيل الخير، والأكل من نبات الأرض بشراسة ومبالغة، وهو السبيل الذي انتهجه الرسول "عليه الصلاة والسلام"، مما يعكس قدرته على اكتساب وسائل الإقناع الحجاجي واستعمالها المميز في الخطبة النبوية.

***- وفي موقف سياسي يعكس حكمة رسول الله "عليه الصلاة والسلام" في التعامل مع قومه في الحرب وبعد الحرب، خاصة مع وفد الأنصار الذين حرموا جميعا عطية وأنفال "حنين"، وهم الذين نودوا وقت الشدة، فثاروا يقاتلون مع رسولهم، حتى تبدل الفرار انتصارا، فروى ابن إسحاق عن أبي سعيد الخدري قال: لما أعطى الرسول عليه الصلاة والسلام ما أعطى من تلك العطايا في قريش، وفي قبائل العرب، لم يكن في الأنصار منها شيء، حتى كثرت فيهم القائل: ... (المبارك فوري، صفحة 361) فدعاهم..... فجمعوا.... فخطب فيهم بعد أن حمد الله وأثنى على رسوله "صلى الله عليه وسلم": "يا معشر الأنصار قد بلغني من حديثكم في هذه المغام التي أثرت بها أناسا أتألفهم على الإسلام، لعلهم أن يشهدوا بعد اليوم، وقد أدخل الله في قلوبهم الإسلام، ثم قال يا معشر الأنصار: ألم يؤمن الله عليكم بالإيمان، وخصكم بأحسن الأسماء، أنصار الله، وأنصار رسوله... ولولا الهجرة لكنت أمراء من الأنصار، ولو سلك الناس واديا وسلكتم واديا لسلكت واديكم، أفلا ترضون أن يذهب الناس بالشاة والبعير وترجعون برسول الله "إلى رحالكم ثم قال: أجيئوني في ما قلت؟ فقال الأنصار: يا رسول الله وجدتنا في ظلمة فأخرجنا الله بك إلى النور، وجدتنا على شفا حفرة من النار فأنقذنا الله بك، ووجدتنا ضلالا فهدانا الله بك، وقد رضي بنا الله ربا، وبالإسلام ديننا، وبمحمد نبيا، فاصنع يا رسول الله ما شئت، فقال رسول الله: "والله لو أجبتموني بغير هذا القول لقلت صدقتم، لو قلت: ألم تأتينا طريدا فأويناك، ومكذبا فصدقناك، ومخذولا فنصرناك، وقبلنا ما ردَّ الناس عليك....، لو قلت هذا صدقتم، فقالت الأنصار: بل لله ورسوله المنُّ، ولرسوله المن والفضل علينا وعلى غيرنا، ثم بكوا فكثر بُكاؤهم، وبكى النبي صلى الله عليه وسلم معهم....". (البخاري، 1999، الصفحات 1574-1576).

يعكس النص مقدرة رسول الله في إيجاد الحلول أمام الأنصار، موضحا أنه قد بلغه حديثهم... مبينا أن السبب هو تأليف قلوب بعض الناس على الإسلام... فحتم الموقف عدم ذكر السبب فحسب، بل لابد من توضيح العلاقة مع الأنصار بكاملها، رغبة منه في زيادة فاعلية عملية الإقناع الحجاجي، وفق المعطيات التالية:

- مقدمة: تأليف قلوب بعض الناس، ثم العطاء لهم.
- الحجة 1: تقوية لإسلامهم.
- النتيجة 1: الأنصار إسلامهم قوي، (بل أنتم مؤمنون).

هو - ثلاثا - إن الخير لا يأتي إلا بالخير، وأنه كل ما يُبتع الربيع ما يقتل حبطا أو يلم إلا أكلة الخضر كلما أكلت، حتى إذا امتلأت خاصرتها، استقبلت الشمس فتلطت وبالت ثم رعت، وأن هذا المال خضرة حلوة، ونعم صاحب المسلم لمن أخذه بحقه فجعله في سبيل البتامي والمساكين، ومن لم يأخذه بحقه فهو كالأكل الذي لا يشبع، ويكون عليه شهيدا يوم القيامة...". (البخاري، 1999، صفحة 19)، وقد كان رد رسول الله بعد أن سكت فترة لزيادة تشويق الناس إلى الاستماع باستفهام استنكاري حجاجي، كرّره ثلاث مرات، نتيجته "أنه ليس خيرا"، لأن الخير لا يأتي إلا بالخير.

ويمكن تناول النص النبوي حجاجيا على نحو "مقدمة" حذر من خلالها من زهرة الدنيا والأموال، لأنها شر إذا أدت إلى شر، ثم "حجة" في شكل "سند مضمّر" قائم على وجوب الحذر منها، ثم "نتيجة" مترتبة عن النجاة في الوقت نفسه يمكن أن نستخلص حجة من الحجة الأولى: إذ أن الترغيب في الدنيا واكتساب المال قد يكون خيرا إذا أدى إلى خير، بحجة وجوب أن يأخذ من الدنيا وزهرتها بقدر، إذا أدت إلى خير، تكون النتيجة كذلك: النجاة والفلاح في الدارين.

وعملا على تقوية نتيجة الحجتين الظاهرة والمضمرة، ضرب الرسول صلى الله عليه وسلم "مثلا محسوسا من الحياة الدنيوية التي يعرفها كل المتلقين للخطبة، فشبّه المال ب"العشب الأخضر" الذي تأكله البهائم في الربيع، وأن بعضه قد يقتل الحيوان أو يقرّبه من القتل، إلا الناقّة التي تأكل أكلا خفيفا، فتنتفخ ثم تجتر وتتخلص من الزائد من الطعام حتى تستريح، ثم تواصل طعامها، وهو تشبيه كان بمجملة "مقدمة" و"معطى" حجاجيا استثمار مبدأ حجاجيا هو الخبرة الرعوية المشتركة للسامعين، إذ عزّزه الرسول "صلى الله عليه وسلم" بحجة أنه: لا ضير في كسب المال الخير، لأنه يكون نعم صاحب للمسلم، بشرط أخذه بحقه والإنفاق منه في سبيل الله واليتامي والمساكين، وبذلك تكون "النتيجة" حتمية وهي الاستمتاع به في الدنيا، والنجاة به في الآخرة.

فلقد وضع الرسول "" صلى الله عليه وسلم " السؤال المُشكّل على الصحابي، وأعلمه أن الخير لا يأتي إلا بالخير، وأن الشر لا يأتي إلا بالشر، فالربيع - وإن كان خيرا - كما يعرف الناس - إلا أنه قد يقتل أو يُقرّب من القتل، ولأجل ذلك فإن الناقّة التي تأكل منه قدر حاجتها، ثم تتخلص من الزائد فلن يؤذيها، لكن الشره في الأكل قد يؤدي بالبهيمة إلى الموت، كذلك المال الذي أسند إليه الخضرة والحلاوة "إن هذا المال خضرة حلوة" فكأنه هو العشب، وأن الذي يشربه في جمعه ويمنعه عن المستحقين قد حوله بعمله إلى شر، فسيؤدي به إلى الشر والعكس صحيح، فمدار تحويل الأشياء إلى خير أو شر هو طريقة استعمالها، وقد وصل الإقناع غايته الكبرى وذلك من خلال :

- فتح المجال لإمكانية الحوار في الخطبة النبوية،.... بل سؤال الرسول "ص" عن الرجل السائل أمام الناس ليحييه.

رسالة سماوية، للرَّسول "صلى الله عليه وسلم"، فيها دور المبلغ، ولهم دور النصر والفوز برضا الله.

إنَّ الناظر في حجاج الرسول "صلى الله عليه وسلم" مع أصحابه الأنصار نجده قد استعمل ما يُسمى "بالحجاج المضاد"، لكن ليس من منظور تبني وجهة الطرف الآخر المحاجج مؤقتاً ثم نقضها، وإنما حجاج من نوع خاص يهدف إلى تبني وجهة النظر الأولى وتصديقها تماماً، ممَّا يجعل الطرف الآخر يقتنع إذا علم الصدق والإدراك الحقيقي لشعوره ووجهته نظره (وهذا هو موقف الأنصار)، فالتمسوا أسباب القبول لوجهته نظر أخرى (رسالة الإسلام) وهو حجاج يسميه "طه عبد الرحمان" حجاجاً تقويمياً، وهو يأتي في أعلى درجة من الحجاج التوجيهي الذي يتضمن إيصال المستدل لحجته إلى غيره...". (طه، 1998، صفحة 228) (والشهري بن ظافر، 2004، الصفحات 470-471).

4- خاتمة

وفي الأخير نستخلص أنَّ الحجاج في الحديث النبوي أدى دور الإقناع من خلال التنوع في آلياته، والتي وظفها الرسول صلى الله عليه وسلم مراعاة لمقتضى حال المخاطب من جهة، وسعيًا إلى تحقيق هدف واجب تبليغ الدعوة تحت قوله تعالى: " ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن." كما يعكس الحجاج القدرة الخطابية والحجاجية لدى الرسول صلى الله عليه وسلم مبعثها معرفته ودرايته بأبعاد "السياق الحجاجي" والنفسي للمخاطبين، مما جعله يتمكن من إقناع مخاطبه والتأثير فيه.

- تعدُّ الآليات المنطقية وسيلة ناجحة لتحقيق الفائدة الإقناعية، خاصة حين اعتمدت على "مقدمات" قدمت بطريقة منطقية، مع براعة استخدام الحجج والاستنتاجات، مما يعكس اهتمام الرسول صلى الله عليه وسلم خاصة والعرب عامة بأهمية المخاطب في العملية الإقناعية، فبذلك تنوعت الآليات وتعددت أنواع الحجاج بالاعتماد على السلالم الحجاجية وأدوات الربط بأنواعها المختلفة.

تضارب المصالح

يعلن المؤلف أنه ليس لديه تضارب في المصالح.

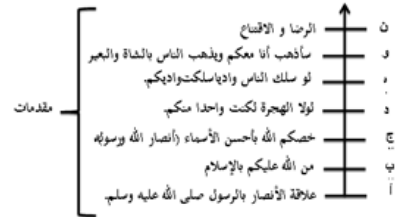
- المصادر والمراجع

- صفي الدين المبارك فوري. (بلا تاريخ). الرقيق المختوم. دار الكتاب الحديث.
- Perلمان، و tetyka. (2008). traite de l'argumentation. edition de luniv de bruxelles.
- ابن فارس. (1991). مقاييس اللغة 30 (المجلد 2). (تح عبد السلام هارون، المترجمون) بيروت: دار الجيل.
- ابن منظور. (بلا تاريخ). لسان العرب. (تحقيق عبد الله علي الكبير، المترجمون) دار المعارف بيروت.
- أبو الوليد الباجي. (1987). المنهاج في ترتيب الحجاج (الإصدار 2). (تح عبد المجيد تركي، المترجمون) دار المغرب الإسلامي.
- أبو بكر العزاوي. (2006). اللغة والحجاج. دار البيضاء: العمدية في الطبع.

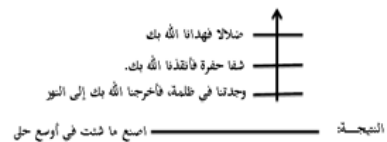
نتيجة 2:..... لا تحتاجون أن يعطى لكم ما يتألفكم على الإسلام .

- النتيجة:..... الرضا بعد العطاء.

إلا أنَّ "قانون الاستدلال" من خلال الخطبة يعكس أنَّ الرضا بعدم العطاء يكون صعباً، لذلك عهد رسول الله إلى تحويل النتيجة" إلى "مقدمة أخرى" ليتم إقناعهم عن طريق شرح علاقته بهم، وذلك حين تدرج بالحجة، ليصل إلى الرضا، وذلك من خلال رسم معالم سلالم حجاجية - تعكس منذ الوهلة الأولى علاقة الرسول عليه الصلاة والسلام بالأنصار، وهي:



فبناء على هذه الحجج التي قدمها رسول الله كان ردَّ الأنصار هو "الرضا"، إذ يمكن أن نتصور "الصورة البصرية" لمقارنة عودة الرسول معهم وعودة بقية الناس بالشاة والبعير ... وهي صور من شأنها أن تزيد في إقناعهم واقتناعهم، فليس هناك إلا الرضا والقبول بخاتم الأنبياء والمرسلين العائد مع الأنصار إلى ديارهم، بيد أنَّ رسول الله "عليه الصلاة والسلام" لم يقتنع منهم بالإجابة (رُدُّهم)، فكان يريد منهم إجابة تشرح موقفهم بجلاء ليزيدهم إقناعاً، فكان الردَّ من الأنصار ما يؤكد رضاهم مقدمة اقتناعهم بحكم الرسول عليه الصلاة والسلام" لك(معطى)،: والحجة من خلال:



في وقت أكدَّ الرسول "صلى الله عليه وسلم" إذا أتوا بحجج أخرى تؤيد عدم رضاهم، فسوف يصدِّقهم أيضاً، مما يعكس إدراكه لموقفهم، فقصده ذلك بمعطى (مقدمة) "عدم الرضا بإعطاء الناس من قريب وغيرهم، وحرمان الأنصار" فتكون الحجج المقدمة هي الغاية في الإقناع في حالة هي "الأهم" (تبليغ الرسالة والحرص على إسلام العرب جميعاً)، فقدَّم حججا في شكل سلم حجاجي، (ألم تأتينا طريدا فأويناك، ومكذِّبا فصدَّقناك، ومخذولا فنصرناك) هذا السلم الحجاجي استعمله الرسول بنفسه (افتراضيا) ليوضح أنَّه مقتنع بموقفهم، لكنَّ الشأن شأن آخر يتعلق برسالة السماء فما عليهم إلا الاقتناع بحكمه، لتكون النتيجة: "بل لله المنُّ ورسوله، والمنُّ والفضل علينا وعلي غيرنا، ثم بكوا وبكى الرسول صلى الله عليه وسلم حتى ابتلت لحالهم ... إنه اقتناع تام، فالأمر أمر

- الإمام النووي. (1991). رياض الصالحين، تح عبد العزيز رباح، حديث رقم: 15. الرياض: دار السلام.
- الزمخشري. (1992). أساس البلاغة (الإصدار 1). دار صادر بيروت لبنان.
- العسقلاني ابن حجر. (1998). فتح الباري على شرح صحيح البخاري (المجلد 9). القاهرة: دار الحديث.
- حبيب أعراب. (2001). الحجاج والاستدلال الحجاجي، عناصر استقصاء نظري. عالم الفكر (1).
- ذهبيته حمو الحاج. (2015). الحجاج وإشكالاته في اللسانيات المعاصرة. دار أم الكتاب للنشر والتوزيع.
- شكري المبخوت. (1989). الحجاج في اللغة. القاهرة: دار الفكر للدراسات.
- طه السبعواوي. (2001). أساليب الإقناع في المنظور الإسلامي (الإصدار 1). بيروت: دار الكتب العلمية.
- عبد الحليم بن عيسى. (2006). البيان الحجاجي وإعجاز القرآن الكريم. مجلة التراث العربي (102).
- عبد الرحمان طه. (1998). اللسان والميزان أو التكوثر العقلي. الدار البيضاء: المركز الثقافى العربى.
- عبد الرحمان طه. (2000). في أصول الحوار. الدار البيضاء: المركز الثقافى العربى.
- عبد الله صولته. (2007). الحجاج في القرآن من خلال أهم خصائصه الأسلوبية. بيروت: دار الفارابي.
- عبد الهادي الشهري بن ظافر. (2004). إستراتيجية الخطاب، مقاربة لغوية تداولية. بيروت: دار الكتاب الجديد.
- عز الدين بليق. (1981). منهاج الصالحين من أحاديث سنة خاتم الأنبياء والمرسلين. بيروت: دار الفتح.
- عمار بن زيوش. (بلا تاريخ). عدنانى عبد القادر، الفلسفة (الإصدار 2). الجزائر: المعهد التربوي الوطنى.
- فيليب بروتون. (2013). الحجاج في التواصل. (تر محمد مشبال، المترجمون) القاهرة: المركز القومى للترجمة.
- محمد الأمين محمد سالم. (بلا تاريخ). مفهوم الحجاج وتطوره في البلاغة المعاصرة. مجلة عالم الفكر.
- محمد العبد. (بلا تاريخ). النص والخطاب والاتصال.
- محمد العيد. (1989). النص والخطاب والاتصال. القاهرة: دار الفكر للدراسات.
- محمد بن إسماعيل البخاري. (1999). صحيح البخاري، حديث رقم 4075-4079، كتاب المغازي، باب غزوة الطائف، ج 4 (الإصدار 1).
- محمد مجدي الشهاوي. (د، ت). خطب الرسول صلى الله عليه وسلم: المكتبة التوفيقية.

الاستشهاد بهذا المقال كان بحسب أسلوب APA

الجمعي حميدات، (2023)، الآليات المنطقية للحجاج ودورها الإقناعي في الخطاب النبوي الشريف، مجلة الأكاديمية للدراسات الاجتماعية والإنسانية، المجلد 15، العدد 02، جامعة حسيبة بن بوعلي بالشلف، الجزائر، الصفحات: 514-525.